وأتباعهم؟ هذا وجه، وثم وجه آخر وهو أن يقال إن أصحاب النبي
صلى الله عليه وسلم الذين اتخذوا مصاحف نبيهم وشعره وقتيله ونعليه وجبته
وفعلوا بها ما ذكر في الروايات هم الذين أبوا أن يقبلوا قبره صلى الله عليه وسلم وأن يطوفوا
ويتمسحوا به وأن يعكفوا عليه وأن يستلموه ويلتزموه وأن يفعلوا شيئا مما ذكروه وزوروه
وهم الذين أبوا أن يسووا هذا بهذا وأن يستدلوا بهذا على هذا. فإذا كان
فعلهم رضوان الله عليهم وكان تبركهم بمصاحف نبيهم وشعره وقتيله ونعله وجبته
حجة ودليلا وبرهانا دينيا فكيف لا يكون تركهم تقبيل القبور والطواف والتمسح بها واستلامها والتزامها
والعكوف عليها حجة وبرهانا؟ وإذا جاز الاقتداء بهم والاهتداء بهديهم في ما فعلوا وصنعوا
فكيف لا يجوز الاقتداء بهم والاهتداء بهديهم فيما تركوا؟ وإذا كانوا الراشدين ومصيبين
في هذا فكيف لا يكونون راشدين ولا مصيبين في ذاك؟ وإذا فرقوا بين الذات
النبوية وبين القبر النبوي فكيف لا يفرق بينهما من يحتج بأفعالهم وأعمالهم؟ وإذا كان
هذا التفريق منهم حقا فكيف لا يجب اتباعهم والأخذ به وإذا كان باطلا وضلالا فكيف
لا يمكن أن يكون تبركهم بالمصاحف والشعر والوضوء والجبة باطلا وضلالا؟ فهنا أمران
لا ثالث لهما: إما أن يكون تركهم هذا وفعلهم هذا رشدا وهدى فيتبعوا في الأمرين
معا وإما أن يكون الأمران معا ضلالا وخطأ فلا يتبعوا في واحد منهما وعلى الأمرين كليهما
ظاهرها لا يمكن تقبيل القبور والطواف والتمسح بها والعكوف عليها واستلامها والتزامها
هدى ودينا. وهذا هو المطلوب. هذا وجه، وثم وجه ثالث وهو أنه يقال: إننا قد
وجدنا الدلائل على أنهم كانوا يتبركون بأشعار الرسول الكريم وبوضوئه وبأثوابه وبعرقه
وبما ينفصل من جسده الشريف لأنه قد ثبت كل ما منه كان مباركا حقيقة، وكان الله قد جعل فيه
خاصية ومعنى وبركة فكان يفيد ما يتصل به، وكان وضعه إياه
على أجسادهم نافعا لهم نفعا مشهودا محسوسا كما كانت تفله صلى الله عليه وسلم في عينيه الرمد والحمى
يزيل الرمد والعمى وكما كان وضع يده الشريفة في الماء أو في الطعام محدثا الزيادة والربو
والبركة فيهما وكما كان وضع قدمه على الجبل المضطرب مسكنا له وكما كانت معجزاته صلى الله
عليه وسلم كلها كذلك. فهم قد كانوا إذن يضعون هذه الأشياء منه عليه السلام على أجسادهم
وكانوا يتبركون بها لأنهم كانوا يجدون أن الله قد جعل فيها بركة ونفعا حقيقيا بالمشاهدة
والتجربة والخبرة فكانوا يجدون العرق أطيب من الطيب ويجدون ريحه عليه السلام أذكى
وأذكى ريحا من المسك وأنواع العطور وكانوا يجدون بصاقه يرد الأبصار
ويزيل الأمراض ويرد العافية، ويده في الشيء ماء أو طعاما أو شيئا
آخر موجدا فيهما الزيادة والربو والبركة أو موجودة الزيادة والبركة حسب
الفائدة فيها. فكانوا يجدون لهذه الأشياء منه عليه السلام معاني وحقائق لا توجد في سواها
من سواه كما يجدون المعجزات عنده دون سواه. وهذا لا ريب فيه. وحينئذ فيقال
لهؤلاء المستدلين بهذه الأمور: إنه لا يصح لكم تقبيل القبور ولا الطواف بها ولا
شيء مما ذكرتم حتى تقيموا الحجة القاطعة على أن لتراب قبره ولتراب قبور الآخرين من الأحباب
والأحجار التي عليها وحولها مثل ما كان لمصاحفه وشعره وعرقه وفضلات طهوره عليه السلام
من المعاني والخصائص والمنافع والخوارق والمعجزات لأن التبرك بهذه الأشياء لم
يكن إلا من أجل ما فيها وما خصها الله به من الخوارق والمعجزات المشهودة المحسوسة، ولكن
من ذا يستطيع أن يدعي بأن لتراب القبور والأخشاب والأحجار وما فوقها مثل ما كان لمصاحفه
رسول الله والشعر والعرق والفضلات ووضوئه من البركات والمعاني التي كانت فيما ذكرناه من
الشفاء ورد البصر والزيادة في الطعام والشراب والحاجات الأخرى وجود الاتصال واللقاء
؟ هذا لا يمكن أن يدعيه عاقل ولا أن يقوله قائل. وإذن فهذه الحجة باطلة بلا نزاع
وإذن فالاستدلال بها فاسد بلا ريب. وتحقيق هذا الوجه أننا نقول إنه لمن الغباوة